تعقيبات

أم كلثوم ونهج البردة :

نهج البردة للمغفور له أحمد شوقي بك قصيدة معروفة مشهورة قالها في التوسل ومدح النبي صلوات الله عليه عند ما قصد الخديوي عباس الثاني إلى الحج عام ١٩٠٩ م ، وعارض بها قصيدة البردة — أو البردة — للشاعر شرف الدين محمد بن سعيد الأبوصيري ، وقصيدة البردة هذه أشهر من كل تعريف ، فما رزقت قصيدة في الأدب العربي ما رزقت من الذيوع في ألسنة الناس ، حتى إنها في القرى لتعتبر نشيد الوداع الذي يردده « الفقهاء » في أذن الميت وهو في طريقه إلى القبر . .

أما قصيدة نهج البردة فلها قصة ، فقد نظمها شوقي في مناسبة حج الخديوي كما قلنا ؛ وكان يرجو أن تكون هذه المناسبة إلى جانب الاتجاه الديني في القصيدة مما يضمن لها الذيوع بين الناس كما ذاعت البردة ، وطبع يومذاك شرح لتلك القصيدة قيل إنه من عمل المغفور له الشيخ سليم البشري — وهو في مقامه الديني ما هو — ليضفي عليها القداسة ، ولكن أهل الخبرة يؤكدون أن ذلك الشرح كان من عمل نجله المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري ، وإن كان الشيخ عبد العزيز ظل ينفي هذه التهمة إلى آخر أيامه . عليه رحمة الله ..

ومهما يكن من شيء فإن نهج البردة لم تبلغ مبلغ البردة في نظمها ولا في ذيوعها . .

وفي هذه الأيام اختارت أم كلثوم ثلاثين بيتاً من نهج البردة وغنتها كما سمع الناس ، أقول غنتها والصحيح أن أقول إنها ألقتها ، أو أنشدتها ، لأن أم كلثوم لم توفق في غناء القصيدة كما هو شرط الفن وشرط الغناء ، وذلك يرجع إلى عدة أسباب :

أولا : لأنهم اختاروا للمطربة ثلاثين بيتا من القصيدة ، ومهما يكن المطرب من قوة الحنجرة وبراعة الصناعة وحسن التصرف فإنه لا يستطيع أن ينهض بهذا القدار في الغناء دفعة واحدة وخاصة في الشعر القوي الرصين .

ثانياً : لأنهم لم يراعوا في الاختيار درجة صوت أم كلثوم في مقاماته الفنية ، ومن المعروف أن كل شعر لا يصلح لكل لحن ، وأن كل لحن لا يلائم كل صوت ..

ثالثاً : جعلوا الغناء محدوداً بمدة من الزمن ، ولهذا عمد الملحن إلى إخراجها دفعة واحدة ، ولم يتمكن من خلق فترات موسيقية لاستراحة المطربة إلا مرة واحدة .

وعلى أي حال فإن الملحن لم يكن موفقاً ، لأنه جرى على نغمة واحدة رتيبة ، وهي النغمة التي آثرها الموسيقار رياض السنباطي في تلحين قصيدة « سلوا قلبي » وقصيدة « السودان » ولهذا شعر الناس بأن أم كلثوم لم تأت بجديد في قصيدة نهج البردة ، وقد سمعوها وكأنهم كانوا يسمعون شيئاً معاداً في آذانهم وأكثر من ذلك فإن اللحن كان يتخلى عن المعنى في كثير من الأحيان .

شيخنا الجارم :

وشيخنا علي الجارم بك لم يكن موفقاً في ذلك الشرح الذي قدم به الأبيات التي غنتها أم كلثوم إلى السامعين ، فقد جرى في ذلك على ما ألف من الطريقة المدرسية وهي طريقة عقيمة لا تجدي في فهم الشعر وإظهار جماله ، فقد عمد إلى شرح الكلمات اللغوية على ماهو وارد في القاموس ، ثم أخذ يورد المعنى على مقتضى هذا التفسير ، فهو مثلا يشرح قول شوقي :

لما رنا حدثتني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى

فيقول : رنا إليه : أطال النظر - الخ .. كلا . ثم كلا . فإن إطالة النظر هنا تهدم قوة البيت وتقلل من جماله ..

وعجيب من شيخنا الجارم أن يذكر معارضة البارودي للأبوصيري ، ويذكر مطلع تلك المعارضة ، ولكنه لم يذكر بيتاً واحداً للأبوصيري ، وهو الأصل والأساس الذي قام عليه كل هذا البنيان .

ويقول شوقي :

يارب هبّت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم

رأى قضاؤك فينا رأي حكمته أكرم بوجهك من قاض ومنتقم

وكان شوقي رحمه الله يشير بكلمة « منتقم » إلى معنى مقصود

فقد قال قصيدته فى أعقاب حادثة دنشواى التى أدمت قلوب المصريين ، وكانت مصر فى ذلك الوقت تسام الضيم والهوان من أساليب الاستعمار ، وكان الخديوى فى ضيق من هذا ما بعده ضيق ، فتوسل شوقى إلى الله فى « الانتقام » من هؤلاء الظالمين المستبدين ، وجحيم بذلك ولم يستطع الإبانة نظراً لصلته الرسمية يومذاك بالقصر ، فجاء الجارم بك بعد طول تلك السنين وجحيم كذلك فى شرح هذا المعنى .

لقد كنت أعتقد أن غناء أم كلثوم لهذه القطعة من نهج البردة إنما هو لإثارة عواطف الشعب بهذا المعنى لمناسبة ما هو قائم اليوم بيننا وبين الانجليز وكنت أعتقد أن الجارم سيعمد إلى الكشف عن هذه الحقيقة ، وإلى تذكير الشعب بتلك الواقعة التى ألمع إليها الشاعر ، ولكنه لم يحوم على ذلك أبداً ، ولست أدرى إذن لأية مناسبة كان اختيار هذه القطعة وتلحينها وغنائها وشرحها ذلك الشرح الجارى .

البصائر للتوحيدى :

أبو حيان التوحيدى شيخ من شيوخ الأدب العربى ، فهو تلميذ الجاحظ غير مدافع ، من بحره اغترف ، وفى طريقه درج ، ولكنه فى آخر حياته ضاق بالناس وبالدنيا لطول ما لقى من عنت الناس وقسوة الحياة ، فجمع كل مؤلفاته وقدمها طعمة للنار ، حتى لا تكون وشيجة بينه وبين الناس بعد مماته ، وحتى يريح عظامه فى القبر من جهل المبايعين كما قال ..

ولكن المنقبون من العلماء عثروا على مخطوطات لبعض مؤلفات هذا الأديب الثائر فعمدوا إلى تحقيقها ونشرها ، فمن قبل أخرجت له مطبعة بولاق كتاب « الصداقة والصديق » كما طبعت له رسالة صغيرة فى « العلوم » ثم نشر الأستاذ حسن السندوبى له كتاب « المقابسات » وهو من أمتع مؤلفاته ، ومنذ أعوام أخرج الأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ الشاعر أحمد الزين كتاب « الإمتاع والمؤانسة » مصححاً محققاً ، وقد حدثنى الأستاذ أحمد الزين منذ سنوات أنه أعد العدة مع الأستاذ أحمد أمين لنشر كتاب « بصائر القدماء وسرائر الحكماء » للتوحيدى ، وأنهما جمعا له كل ما يمكن من الأصول ، وبذلا لتحقيقه وتصحيحه غاية الجهد حتى يخرج على أتم ما يكون ..

أقول هذا بمناسبة ماجاء أخيراً فى بريد سورية من أن الأستاذ إبراهيم الكيلانى قد قدم هذا الكتاب للطبع بعد أن حققه وعلق عليه ، فلعل الأستاذ الكيلانى — ما دام لم يمض فى الطبع — يرجع إلى الأستاذ أحمد أمين فيما حقق من أصول هذا الكتاب وجمع من مصادره ومخطوطاته ولا بأس أن يكون الجهد مشتركا حتى يخرج الكتاب كاملا فى التصحيح والتحقيق ، ولا معنى لأن يطبع الكتاب طبعة فى الشام وأخرى فى مصر وتكون كل منهما تكملة الأخرى . .

اللغة العربية والجنسية الإسلامية :

من أنباء الباكستان ، الدولة الإسلامية الجديدة فى الهند ، أن الرجال المسئولين والهيئات الثقافية هناك قد أخذت تهتم بتعليم اللغة العربية وتوسيع الدائرة فى دراستها نظراً لما يقتضيه وضع الباكستان الجديد من توطيد الصلات بالعالم الإسلامى .

واللغة العربية لاشك دعامة قوية فى بناء الجنسية الإسلامية فما ربط المسلمين ولا أمسك بوحدتهم وبقوميتهم على طول السنين وعلى رغم الحوادث والكوارث مثل اللغة العربية التى توحدت فى كتاب الله عز وجل كما توحدت فى مظاهر العبادة الإسلامية وأدائها ، وليس هناك ما يبعث الروعة ويهز المشاعر مثل نداء المسلمين جميعاً وهم يدخلون الصلاة هاتفين : الله أكبر .

والمسلمون فى الهند أهل غيرة على دينهم ، وهم معروفون من قديم بمواقفهم المشهورة فى جانب الوحدة الإسلامية ولا أظن أن هناك من يجهل جهاد المغفور له محمد على وشقيقه شوكت على ، ولا أظن أن هناك من يجهل جهاد الهنود المسلمين للابقاء على الخلافة الإسلامية حتى تكون تاجاً للوحدة ودعامة من دعائمها .

فهذا الاتجاه الذى تتجه إليه الباكستان اليوم ، وهى فى أول عهدها بالوضع الجديد ، مما يدعو إلى الغبطة والاطمئنان بين المسلمين ، وستكون له أطيب النتائج فى توطيد صلتها بالعالم الإسلامى ، والواجب على الجامعة العربية أن تشجع فيها هذا الاتجاه ، وواجب على مصر خاصة أن تساعدها فى هذا ، وأن تمدها بالمدرسين للغة العربية ، وإنه لأقل ما يجب على مصر فى هذا السبيل

حيا الله « الباكستان » فى عهدها الجديد ووقاها شر الدسائس الاستعمارية ، وصانها مما يحيطها من الزلازل والقلاقل .

« الحارس »